IUGJHR
Vol 26, No 1 , 2018, pp 175-196

ISSN 2410-3179

مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الانسانية

تاريخ الإرسال (2017-04-28)، تاريخ قبول النشر (2017-05-24)

المتنبّي وأزمة الشاعر المثقّف

أ. جلّنار تيسير محمّد الصوص [1,*]

[1] وزارة التربية والتعليم – الخليل– فلسطين

[*] البريد الالكتروني للباحث المرسل:
E-mail address: rawan.soos@gmail.com

الملخص:

يتناول هذا البحث أبرز الأزمات التي واجهت المتنبي، وشكلت نقطة تحوّل في مسيرة حياته، وذلك من خلال الوقوف على رصد الأشعار التي عنيت بهذا الجانب من حياة المثقف في العصر العباسي.

وقد اختارت الباحثة المنهج الوصفي الاستقرائي في دراستها للنصوص الشعرية، وذلك باستقراء نماذج شعرية تجلت فيها تلك الأزمات التي تمثلت في أزمة الأخلاق وأزمة السجن والاغتراب وأزمة العروبة.

كلمات مفتاحية: شعر عبّاسي، المتنبّي.

Al-Mutanaby and the crisis of the educated poet

Abstract

This study deals with the most prominent crises Al- educated " encountered during the Abbasid era. It was considered Mutanaby "The the turning point in his life via documenting the relevant poems. The researcher conducted the inductive approach in her poetry study. The researcher studied a number of poems where the crisis of morals, imprisonment, alienation and Arabism was obviously noticeable. I noticed that Al-Mutanaby was weak and alien during his life, but he didn't surrender .On the contrary, he accepted the challenge and proved that life is meaningless unless you have dignity and pride regardless of its hard work or death will become a better choice instead.

Keywords: Abbasid poetry , Al-Mutanabi

المقدمة:

يعد المتنبي[1] أحد الشعراء القلائل الذين ارتبط فنّهم بحياتهم ارتباطاً وثيقاً، فحياته وفنه لا فاصل بينهما، بل إن حياته أشبه برواية يمثل فصولها فنان عظيم على مسرح الوجود، وهو أيضا أحد الشعراء الذين اضطربت بهم الحياة، فاضطربت نفوسهم تبعاً لاضطرابها وكانت خلجات نفسه وذبذبات روحه صدى وتجاوباً لحياة مليئة بالحزن والفرح، وبالألم والأمل ناظراً إلى المجتمع من خلال حياته الخاصة وتجاربه، فكانت حياته صراعاً ونضالاً ومعاناة منذ نعومة أظفاره في الكوفة إلى أن لقي مصرعه كان حركة لا تعرف السكون ونشاطاً لا يدبّ إليه الخمول فاستمد من الفشل عزيمة، ومن الإخفاق طموحاً، وبين الفشل والنّجاح كانت نفسه أبداً حائمة لا تستقر ولا تهدأ يَحلق أحياناً إلى أعلى القمم، وتحطّ الحياة به تارة إلى الأعماق.

فمثلت سيرته في اضطرابها وتمزّقها صورة لما شاع في عصره من اختلال وقلق في المقاييس الاجتماعية والمثل، وحيرة الإنسان بنفسه ومصيره في بيئة عبثت بها الفوضى، وانتهكت فيها الحرمات، واشتدت الازدواجية في الشخصية البشرية حتى أصبح العيش فيها يتعذر ويستحيل على رجل لم تخمد في نفسه جذوة المثالية، فعانى من أزمة المثقف في التعامل مع كل ما يستجد من عوامل وأحداث واكبها في عصره، ومن هنا ارتأيت أن أقف على مفهوم المثقف أولاً، ومحاولة استنتاج العلاقة التي تربط بين هذا المثقف والسلطة السياسية، والدّور الذي يقوم به في التعبير عن أبرز التحّديات الداخلية والخارجية التي واجهته وتحليل الصعوبات والمشاكل التي اعترضت هذا المثقف عند اصطدامه بالسلطة، وخاصة عندما يتمّرد ويثور ضد بعض المواقف، والقرارات السياسية التي تمثّل أغلبها في شعوره بالاغتراب نتيجة أزمة السجن التي تعرّض لها وأزمة الأخلاق وأزمة العروبة .

أولاً مفهوم المثقف:.

وردت كلمة " المثقف" في سياق الدّلالة على الفاعلية، حين كان التثقيف حرفة من يحسن إقامة اعوجاج القناة [2]، من خلال " الثقاف" وهي: " حديدة تكون مع القوّاس والرّماح يقوّم بها الشيء المعوج، والعدد أثقفة، والجمع ثقف"[3]، أو خشبة تسوّى بها الرماح"[4] وغذا " المثقف" اسم مفعول يدلّ على أجود الرماح، [5] وكذا السيوف[6])وقد أتى عمرو بن كلثوم على ذكر السهام والرماح في معلقته قائلاً[7]:

(1)هو أحمد بن الحسين بن عبد الصمد، وقيل أحمد بن الحسين بن مرّة بن عبد الجبار الجُعفي الكندي الكوفي، ولد بالكوفة سنة ثلاث وثلاثمائة في محلّة تسمى كندة فنسب إليها، وليس هو من قبيلة كندة، بل جعفي القبيلة ، وكان والد المتنبي يعرف بعبدان أو عبيدان السّقاء، يسقي الماء لأهل المحلّة، وكان المتنبي يختلف إلى الوراقين ليفيد من كتبهم وقد تميّز منذ الطفولة بالذكاء وقوة الحفظ، وأكثر المقام بالبادية؛ لاقتباس اللغة، وقيل قتل يوم الأربعاء، الثامن والعشرين من رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة هجرية، انظر: ترجمة: الثعالبي، يتيمة الدّهر (90/1) البغدادي، تاريخ بغداد (102/4)، الصفدي، الوافي بالوفيات (336/6) ابن خلكان وفيات الأعيان، (120/1) ابن تعزي بردي، النجوم الزاهرة (340/3) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب (13/3

(2) ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، مادة (ثقف) وانظر: الجوهري، أبو نصر اسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية مادة (ثقف)

(3) أبو منصور الأزهري، محمد بن أحمد الهروي (ت. 37هـ - 980م)، تهذيب اللغة (ج9 /81)

(4) ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، مادة (ثقف)

(5) انظر: أبو علي القالي، اسماعيل بن (القاسم البغدادي، الأمالي في لغة العرب (ج155/1)

(6) انظر : أبو منصور الأزهري، تهذيب اللغة، (ج2 150/12)

(7) عمرو بن كلثوم، الديوان (ص79-80)

إذا عـضّ الثّقـاف بهـا اشـمأزت وولّـــــتهم عشـــــوزنة زبونـــــا
عشـــوزنة إذا انقلبـــت أرنـــت تشـــجّ قفـــا المثقـــف والجبينـــا

ولا نزال نجد في صدى الأصل الثلاثي (ثقف)، رسوخ العلوّ في تصعّد السمو على قدر من هيبة التشخيص، وجلال كلمة الموقف وجميعها تأتلف في بيان النقد الفاحص والتّمحيص الناجز ينبض الحكمة التي تخالج المثقف في لحظات ارتقائه بالمجتمع إلى عالم المثال، وحين نعمد إلى تحديد مفهوم المثقف اصطلاحاً لا نستطيع تجاهل التعريفات التي أوردها العديد من الكتاب والمهتمين بقضية المثقف ودوره في المجتمع، إن هذا المفهوم هو من بين المفاهيم الحديثة النشأة، ولعل أول تعريف نجده تعرّض لمفهوم المثقف بشكل واضح ومحدد هو تعريف (أنطونيو غرامشي 1891م –1937) في كتابه (دفاتر السّجن) حيث ميّز بين المثقف التقليدي، وهو الذي يواصل فعل الأشياء نفسها من جيل إلى جيل مثل المدرس والكاهن والموظف[8]، والمثقف العضوي، وهو صاحب العقل والمفكر المرتبط بصورة مباشرة بالطبقات أو المشاريع ذات المصالح المحددة، والتي توظف المثقف لتنظيم مصالحها، أو في إحكام السيطرة والمزيد من السلطة.

وقد عرض (جوليان بندا 1867م – 1956م) في كتابه (خيانة الاكليروس). لتعريف المثقفين بأنهم تلك الفئة القليلة العدد من الفلاسفة والموهوبين المتفوقين الذين يمثلون ضمير البشرية، ويسهرون على الحفاظ على القيم المطلقة كالعدالة والحقيقة والعقل مثل سقراط والمسيح وفولتير [9]

والمثقف حسب –ادوارد سعيد– فرد منح قدره على تمثيل رسالة أو وجهة نظر، أو موقف، أو رأي وتجسيدها والنطق بها أمام جمهور معين.[10]

وقد اختزل خالد الكركي أبعاد المصطلح، في تركيز فائق، مفاده أن المثقفين هم "عيون الناس وشهادتهم على زمنهم ووعيهم بحاضرها ورؤاهم المستقبلية". [11]

وتوقف نعيم اليافي عند حدود المصطلح، ليعرف (المثقف) بأنه:" الفرد العضوي الوظيفي الناشر للوعي، والمتطلع إلى التغيير، أو هو قائد هذا التغيير إنه النموذج المنخرط بقضايا أمته، والملتحم والمعبر عنها وعن وجدانها وأحلامها، الذي يعيش دائماً وأبداً بقيمه ومثله –تنظيراً وتطبيقاً– فوق محور الكون والأشياء، على حد سيف، حد التمرد والرفض. [12]

ويلاحظ صلاح جرّار أن مختلف محاولات تعريف المثقف لم تغفل أن يشتمل على سعيه إلى التغيير والتطوير من خلال نقده للواقع، ولذلك اعتبره (سارتر) الضمير الشقي؛ لأنه لا يرتاح للأمر الواقع، ويسعى دائماً إلى تفسيره وتغييره إذ لا يقف عند حدود معرفته وتخصصه العلمي، ولكن أفقه الفكري يمتد ليشمل الاهتمام بكل ما هو وطنيّ وإنساني، كذلك يتميز بالعقل النّاقد والقلق، فالحقيقة لديه مفتوحة ومتجددة، وليس مجرّد وثوقيات نهائية، ويخلص إلى أن المثقف شخص يمتلك معرفة واسعة يترجمها إلى سلوك وممارسة تهدف إلى التغيير والتطوير وخدمة المجتمع، ولذلك لا بدّ أن يكون في سلوكه ممثلاً ونموذجاً للناس، ولا بد أن يكون صاحب رؤية وموقف من الأمور تميزه عن غير المثقف. [13]

(8)سعيد ادوارد، صور المثقف –محاضرات ريث سنة (1993م) ، ص22
(9) نفسه، (ص 22)
(10)نفسه ، (ص 23)
(11)الكركي، خالد، أوراق عربية، (ص 296)
(12)مرايا المتخالف –مقاربات نقدية في الفكر العربي المعاصر، ط1، حلب ، مركز الإنماء الحضاري (ص 43).
(13)جرار، صلاح، المثقف والتغيير – قراءات في المشهد (الثقافي المعاصر)، ص 13-15

وأول هذا المفهوم يمكن أن ينطبق على المثقف في كافة العصور، ومن هنا أيضاً تكون الأزمة، فالعلم والمعرفة يتيحان للإنسان الوعي بالواقع وحقيقة هذا الواقع، ولما كان المثقف صاحب رؤية حضارية ومثال يتوخاه فقد لا يكون الواقع منسجماً مع تطلعاته لذلك فإن صاحب الوعي بعلمه ومعرفته يرى واقعه الفردي والاجتماعي والقومي وربما الإنساني دون ما يتوخاه أو يتمناه، كما كان هذا الواقع من القوة بحيث لا يستطيع الفرد أن يصنع إزاءه شيئاً وهنا يجد المثقف نفسه أمام ثلاثة خيارات: إما أن يحاول أن ينسجم مع هذا الواقع ويتصالح معه ويحاول أن يتصدى له تصدياً مباشراً ويعمل على تغييره بالفعل والقول، أما الخيار الثالث فهو أن يقف المثقف من واقعه موقف الواعي المدرك لحجم التحديات وضخامة المعوق، وعظم القضايا التي يواجهها.

وفي الوقت نفسه فإن هذا المثقف الواعي يدرك ضآلة إمكاناته الفردية واستحالة ما طمح إليه من تغيير في المجتمع أو الإنسان فيختار فكريّاً مواصفاته وقيمه، ويأخذ هذا الرفض عند المثقف شكل تجليات فنية كما هو الحال عند بعض الكّتاب والشعراء، ولعل المتنبي – والذي تدور هذه الدراسة حوله – ينتمي إلى الفئة الثالثة.

فهو الذي فجّر في نفسه هذه النقمة العارمة وهذا الاستخفاف الشديد بالناس وبالحكام في آن معاً، وهو الذي قاد الأمراء والملوك والكبراء إلى أن يخطبوا ودّه، وأن يحرصوا على استقدامه إلى مجالسهم استكفافاً لحدّته ونقمته واسترضاء له، وطمعاً في مدائحه، ليخلّد ذكرهم في نشيده المعجز، وهو أيضاً الذي قاد الشاعر إلى حتفه وقتله، فالمتنبي عاش في النصف الاول من القرن الرابع الهجري الذي شهد ضعف سلطة الخلافة العباسية، وهو أمر نجم عنه نشوء إمارات كثيرة على حواشيها، أشهرها الإمارة البويهية الديليمة الإمامية المذهب في فارس والعراق، والإمارة الأخشيدية التركية السنية في مصر ومعظم بلاد الشام، والإمارة الحمدانية التغلبية العربية الإمامية غير المغالية في حلب ومنبج وأنطاكية والموصل، وكان القرامطة العلويون المنحرفون قد أنشأوا لهم كياناً دموياً في البحرين إذ كانوا يغيرون على مدن العراق والشام، ويعترضون قوافل الحجاج، ويقتلون بلا رحمة، ويأسرون ويسبون من لم يكن على مذهبهم حتى لو كانوا شيعة، بل إنهم ذبحوا الحجيج في مكة، ونقلوا الحجر الاسود إلى البحرين، وظل في حوزتهم زهاء عشرين عاماً [14].

ثانياً: المتنبي وأزمة المثقف :

يعدّ المتنبي أحد شعراء العربيّة، كان وما زال شخصيّة جدليّة اختلف النّقاد والدّارسون حولها، فمنهم من رآه إنساناً عظيماً، وشاعرا مُفلقاً، وحكيماً بليغاً، ومنهم من رآه متطرّفاً، ومتهوّراً، ومغروراً، ومن هنا كان لا بدّ من الوقوف على بعض الأبعاد الّتي أثّرت في حياته وانعكست على شعره، ومنها:

1. أوّلا: البعد الاجتماعي والسّياسيّ فقد تعرّضت الدّولة العبّاسيّة إلى تحوّلات خطيرة شملت جميع مفاصلها، وانتشرت بشكل كبير على الصّعد كافّة(السّياسّية والاجتماعيّة والثّقافية والفكريّة والدّينيّة) أدّى إلى ضعف الدّولة بعد قوّتها وازدهارها، وازدياد عدد المتمرّدين والخارجين عليها، وكثرت الاغتيالات السّياسيّة، وكثر تغييب المناصب الوزاريّة والإداريّة، وتعمّقت الخلافات والانشقاقات الفكريّة والفلسفيّة، وفي ظلّ تلك الظّروف نشأ المتنبّي فوجد الأمّة العربيّة الإسلاميّة ضعيفة ممزّقة فكان عصره " عصر شكّ واضطراب استمرّ فيه النّزاع بين الطّوائف والمذاهب، وضعفت فيه العقيدة، وساور الشّكّ النّفوس، وطغى على العقائد" [15]

(14)ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (ج61/8)
(15)أدهم،علي، هل كان المتنبي متديّنا (مقال) ضمن كتاب: أبو الطّيب المتنبي مالىء الدّنيا وشاغل النّاس، (ص 93)

وأحاطت الأمّة العربيّة المؤامرات والدّسائس حتّى تحوّلت حياتهم إلى " حياة ممزوجة بالدّم بعيدة عن الهدوء والسّكينة، مملوءة بالقلق والاضطراب كلّها نزاع وكلّها غلاب" [16]، فعاش المتنبّي نتيجة لذلك حياة الغربة والاغتراب فلم يستقرّ في بلاد ولم ينعم بالهدوء والسّكينة متأثّراً بظروف الدّولة العبّاسيّة الّتي مرّ ذكرها، وظهرت آثار تلك الغربة في شعره كقوله [17]:

وحيدٌ من الخلان في كلّ بلدة إذا عظم المطلوب قلّ المساعد

ومن الثّابت . تاريخا . أنّ ثمة علاقة بين الحياة السّياسيّة والاجتماعية حيث إن كليهما يؤثّر في الآخر، فالحياة السّياسيّة بأحداثها تؤثّر في الحياة الاجتماعية سلباً أو ايجاباً، كما أنّ الأوضاع الاجتماعيّة تؤثّر في الحياة السّياسيّة، فقد كان المجتمع العبّاسيّ موزّعا على" ثلاث طبقات أساسيّة: طبقة عليا تشتمل على الخلفاء والوزراء والولاة وما يلحق بهم من الأمراء وكبار رجال الدّولة، ورؤوس التّجار، وطبقة وسطى تشتمل على رجال الجيش، وموظّفي الدّواوين، ثمّ طبقة دنيا تشتمل على العامّة من الزّراع وأصحاب الحرف" [18]، فلم تكن أموال الدولة موزعة توزيعا متقاربا، ولا كانت الفروق بين الطبقات فروقا طفيفة، وإنما كانت هناك هوات سحيقة بين الطبقات فكثير من مال الدولة ينفق على قصور الخلفاء والامراء " [19] إلى جانب ذلك فقد حبلت بطون العباسيين بالمفاسد والخطايا التي ارتكبوها بحق الجماهير الكادحة والفئات المسحوقة من المواطنين، وبالتالي فقد أحاطت السلطة العباسية نفسها كغيرها من السلطات بمجموعة من العلماء والادباء والفقهاء، فكان بلاط الخليفة دائرة معارف عامة يجتمع فيها الشاعر الى جانب الثائر، والفقيه إلى جاني المتكلم، فيحققون معا تكاملا معرفيا للسلطة يطبع في أذهان العامة صورتها الظاهرة وهي صورة السلطة المثقفة، ومن هنا فقد أحسّ المتنبي بمدى الظّلم الواقع على فئة الفقراء كونه عانى من قسوة الحياة وضنك العيش فثار محاولاً تغيير هذا الواقع بقوله: [20]

إذا لم تجد ما يبتُرُ الفقر قاعداً فقم واطلب الشيء الّذي يبتُرُ العمرا
هما خلّتان ثروةٌ أو منيّةٌ لعلّك أن تبقي بواحدة ذكرا

فاتّخذت ثورته ضدّ الوضع الاجتماعيّ أبعاداً كثيرة، فالتّناقض الخطير الّذي يعيشه المجتمع، والوضع المؤلم الّذي تتردّى فيه الأمّة لا ينفع فيه التّذمر والشّكوى، وإنّما هو في حاجة إلى الثّورة والتّغيير والموت في سبيل مثل هذه الأهداف خير من الحياة في جبن ومذلّة، فيقول : [21]

إلى أيّ حين أنت في زيّ محرم وحتّى متى في شقوة وإلى كم
وإلا تمت تحت السّيوف مكرّما تمت وتقاسي الذلّ غير مكرّم

(16)صبري، شفيق، حياة المتنبي ممزوجة بالدّم (مقال) ضمن كتاب: أبو الطيب المتنبي مالىء الدّنيا وشاغل النّاس، (ص 42)
(17)الطّباع، عمر فاروق، العرف الطيّب في شرح ديوان أبي الطّيب،(ص 123)
(18)ضيف، شوقي، العصر العباسي الثاني، (ص 53)
(19)نفسه ، (ص 54)
(20)الطباع، عمر فاروق، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، (ص 87)
(21)نفسه، (ص 43)

وكأنّ المتنبي كان يحسّ أنّ الزّمن يغذّ السّير دون أن يستطيع تحقيق شيء من مطامحه، ودون أن يبدّل أو يغيّر من الأمر شيئاً، فإذا به يثور على نفسه الّتي تلقي الشّعر أمام أناس لا يستحقونه فيشغلها ذلك عن طلب المعالي، ونحسّ بنفسيّته القلقة المعذّبة وهي تشعر بأنّ الشّباب أخذ يولّي وأنّ الأيام الّتي مرّت لن تعود، وأنّ الشّيخوخة والعجز عرفا طريقهما إليه، فيقول: [22]

إلـــى كـــم ذا التّخلّـــف والتّـــوالي وكـــم هـــذا التّمـــادي فـــي التّمـــادي
وشغل النّفس عن طلب المعالي ببيـــع الشّـــعر فـــي ســـوق الكســـاد
ومـــا ماضـــي الشّـــباب بمســـترد ولا يـــــوم يمـــــرّ بمســـــتعاد

ثانيا: البعد النّفسيّ: فلقد تغنّى المتنبّي منذ صباه بإنيّته، وظلّت بذور الفخر تنمو في حياته وتتضخّم شاعريّته، وهو على كثرة فخره بنفسه لم يخصّ قصيدة واحدة لهذا الموضوع، وإنّما جاء فخره في الأغراض الأخرى كالمديح والرّثاء ونجده يقحم نفسه في القصائد جميعها، ويزجّ نفسه بها حتّى باتت تلك عادة معروفة عند المتنبّي، فيقول:[23]

أنـا ابـن اللقـاء أنـا ابـن السّـخاء أنـا ابـن الضـراب أنـا ابـن الطّعـان
أنـا ابـن الفيـافي أنـا ابـن القـوافي أنـا ابـن السّـروج أنـا ابـن الرّعـان

فنفس المتنبي عظيمة، لها من الحياة موقف وطموح لا يعرف غاية ولا تقنع بالقليل، ولا تكتفي بالتّمنّي والتّسلية بالأمل دون العمل، فالمتنبّي أوّل شاعر عربيّ يكسر طوق الاكتفاء والقناعة ويحوّل المحدوديّة إلى أفق لا يحدّ[24]

وإنّ هذا المدح الذّاتي مواكب لحالاته النّفسيّة المتقلّبة الّتي عاشها، ومصوّر لصراعاته مع الإحباط والفشل فنبرة الأنا في الطّور الأوّل من حياته كانت صاخبة لا تضمّها أرض ولا تحدّها سماء ولا يلجمها عقل. [25]

إنّ مغالاة المتنبّي في مدح نفسه دفعت بعضهم كابن سكرة إلى اتّهامه ببعض العقد النّفسيّة فقالوا إن الإنسان الّذي يشعر بنقص ما جسميّاً أو ماديّاً أو اجتماعيّا يحاول أن يعوّض ذلك النّقص بشيء ما. [26]، وإذا أردنا أن نكون منصفين فعلينا ألاّ نستغرب هذا من إنسان ظهرت عليه النّجابة منذ الصّغر، فقد نظم الشّعر وهو في الكتّاب.

فالمتنبّي وإن كان من أسرة فقيرة، وإن طعنه بعضهم في نسبه إلاّ أنّه استطاع أن يثبت نفسه على مسرح الحياة الأدبيّة دافعا لتعظيم أناه، فشعره بمثابة السّلاح الّذي يجابه به العدوّ، وهو السّلاح الّذي يستفزّ به كلّ من هم حوله ممن عايروه بفقره وانحدار أصله، ومن هنا فقد أحسّ بظلم المجتمع له وبحسده، فكيف لابن سقّاء أن ينال ما ناله من الشّهرة' إذ عوير بشيء لم يكن له فيه يد أحسّ به بين أقاربه، وفي أزقّة كندة وحضرموت وفي الكتّاب وعند الورّاقين[27]، فمعايرة النّاس للمتنبّي بأبيه ساهمت في إبراز الأنا المتضخّمة لديه وهذه ردّة فعل طبيعيّة لإنسان عانى من التّجريح والتّحقير، فالمتنبّي استحوذ على أعلى الدّرجات فسما على النّاس وأصبح لا يتّقي عظيماً، ولا يخاف أحدا، وأبعد من ذلك فالجميع محتقر في نظره كشعرة في مفرقه، فيقول: [28]

(22) نفسه، (ص164)
(23) نفسه، (ص65)
(24)أدونيس، أحمد سعيد، مقدّمة الشّعر العربيّ، (ص 57)
(25)سلطان، منير، الصّورة الفنيّة في شعر المتنبّي (التّشبيه)، (ص 218)
(26)عارف الحسن، نهى، المتنبي دراسة نفسية وأسلوبيّة، (ص 38)
(27)خفاجي، هادي، سنوات ضائعة من حياة المتنبّي، (ص 362)
(28)الطباع، عمر فاروق، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ،(ص 79)

أي محـــــــــلّ أرتقـــــــــي أيّ عظـــــــــــيم أتّقـــــــــي
وكـــلّ مـــا قـــد خلـــق الـــلـــــه ومـــــا لـــــم يخلـــــق
محتقـــــر فـــــــي همّتـــــي كشـــــــعرة فـــــــي مفرقـــــي

فالاغراق في مدح الذّات سمة معروفة لدى الشّاعر، ولكن ما تبرير هذا الاغراق في المدح والشّعور بالعلوّ؟ أهو إحساس الشّاعر بالتّميّز ممّا أسهم في تكريس تعاظم الأنا حتّى المغالاة؟ أم إحساسه بنقص النّسب الأمر الّذي دفع به للّجوء إلى الأنا المتعالية لتعويض النّقص؟

إنّ النّزوع إلى التّعالي والتّسامي متجذّر في ذات المتنبّي وهو مقوّم من مقوّمات شخصيّته بما استشعره في تكوينه وطبيعته من إمكانات أكسبته اعتداداً وثقة بالنّفس وتعالياً على الآخرين [29]، فانطلق من ذاته الفرديّة إلى الذّات الجماعيّة يتغنّى بأحداث البيئة والعصر، فعاش في صراع دائم بين الواقع والمثال، وكان لحياته المضطربة أثر كبير في توجيه عاطفته، فأخذ يبحث في داخل نفسه وينقّب في أعماقه ساعياً نحو الأمثل، ومن النّجاح والفشل، ومن الأمل واليأس، ومن الحزن والسّرور انبثق لديه الفنّ فكان صورة لنفسه المضطربة القلقة الّتي لاتستقرّ على حال فكان طبيعيّاً أن تعكس حالة المتنبي النّفسيّة على شعره، فتظهر حياته في فنّه مضطربة متشعّبة. [30]

ثالثا: البعد الثقافي: على الرغم من حالة الانقسام السّياسي والانهيار الاقتصادي والانحلال الاجتماعي الّذي ساد في العصر العبّاسيّ، فقد شهد هذا العصر نهضة فكريّة وأدبيّة أعطت الحضارة الإسلاميّة رفعة وسموّاً، ولعلّ من أبرز العوامل الّتي ساهمت في تلك الحضارة عناية الخلفاء والوزراء بالشّعراء والأدباء والاحتفاء بهم في مجالسهم والإغداق عليهم، وكان المتنبي من بين أولئك الشّعراء المثقفين الّذين قرأوا الكثير واطّلعوا على أغلب الثّقافات العالميّة المؤثّرة المحيطة بالعالم العربيّ والّتي انتشرت في ظلّ حركة التّرجمة والاحتكاك الحضاريّ وقد " دخلت على لغة الشّعر الألفاظ اليونانيّة والفارسيّة لاحتكاك اللّسان العربيّ بالألسنة الأعجميّة كما تسلّلت بعض الألفاظ الفلسفيّة والعلميّة والدّينيّة". [31]

وتعدّ الكوفة ـ موطن نشأة الشاعر ـ من أهمّ المؤثّرات اللّغويّة والثّقافيّة الّتي تركت أثرها في شعر المتنبي، فقد نشأ في وسط دينيّ علويّ وألحقه والده بإحدى المدارس العلويّة" وبذلك اتّصل مباشرة بتعاليم الشّيعة" [32] إذ وفر له التحاقه بالمدارس العلويّة بيئة دينيّة شيعية تعلّم أصولها، وانتقلت أغلب مبادئها إلى نفسه فسيطر عليه الشّعور بالفخر والاعتداد بالنّفس، وتسامي الذّات حتّى رأى الجميع صغارا في عينه، إيمانا منه بنفسه وبقضيّته وبشهره كقوله: [33]

أمـط عنـك تشـبيهي بمـا وكأنّـه فمـا أحـد فـوقي ومـا أحـد مثلـي

أضف إلى ذلك حدّة ذكائه، وسرعة حفظه الّتي عرف بها، فقد أقبل بشغف "على مختلف الثّقافات في عصره يعبّ منها وينهل من ينابيعها" [34]

(29)إبراهيم، نوال، المتوقّع واللامتوقع في شعر أبي الطّيب، (ص 53)
(30)طاليس، أرسطو، الشعر، (ص 68)
(31)ضيف، شوقي، الفنّ ومذاهبه في الشّعر العربيّ، (ص 303)
(32)أدونيس، الثابت والمتحول تأصيل الأصول، (ج2/ 104)
(33)الطباع، عمر فاروق، العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب، (ص113)
(34)نافع، عبد الفتاح صالح، لغة الحبّ في شعر المتنبي، (ص 23)

ومن هنا يبدو أن أولى الأزمات التي واجهها كانت أزمة أخلاق فأخذ يسجّل موقفه مما عليه الناس من أخلاق وتقاليد وأعراف في ظل المفاسد والانحلال الذي انتشر في البيئة الاجتماعية وجاء ذلك في صورة آراء واتجاهات عرض لها في مواطن عدّة من شعره، فتراه يتحدث عن غدر الأصدقاء وخيانتهم، ويقرن ذلك بضرورة الحذر من الناس والوقوع في حبالهم، فيقول:[35]

وكُـنْ علـى حَـذَرٍ للنـاسِ تسُـتُرُه ولا يُغـرّك مـنهم ثغْـرُ مْبتسـم

كما واستشرى النَفاق الاجتماعي واستحكم أمره فيهم، ومن الصعب استئصاله، فأصبحت صفاتهم الخداع والمكر والتّستر وراء الدّين لبلوغ غاياتهم، فيقول:[36]

فلـم أَر ودّهـم إلاّ خـداعاً ولـم أَر ديـنهم إلا نفاقـا

كما ويصفهم بالجهل والسفه فيقول [37] :

وإذا أتتـك مـذمتي مـن نـاقصٍ فهـي الشـهادة لـي بـأني الكامـلُ
ومن لـي بفهمـي أهيل عصرٍ يدعي أن يحسـب الهنـدي فـيهم باقـل

وتارة يصفهم بصفاتٍ مثل اللؤم ونكران الجميل، فيقول [38]:

عليـك إذا هزلـت مـع الليـالي وحولـك حـين تسـمن فيهـا هـراش

كما ويصور حال الشباب الذي انقلب إلى لهوٍ وسكر، وتحول الشيب إلى هم وألم ، ومن ثم فالحياة في حقيقتها ليست سوى موتٍ دائم، فيقول [39] :

إذا كـان الشّـباب السّـكر والشيـ ب همّـا فالحيـاة هـي الحِمـام

كما عانى المتنبي في معاملة من لا يوافقون طبعه أشدّ المعاناة ولا أدلّ على ذلك من قوله: [40]

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عـدواً لـه مـا مـن صـداقته بـدّ

ويقول في سخط شديد على أهل عصره الصّغار الهمم القاعدين عن بلوغ المجد في قصيدة يمدح بها تميمياً، وفيها يعد بأن ينال حقه بالقوّة مدعوماً بأنصاره المحنكين، كما يراوح فيها بين الألم والأمل في إمكانات وصوله إلى مبتغاه الذي سماه حقه، فعزا تلك الطموحات التي يحلم بها إلى نفسه، كأنه هو الذي سيقود ثورة يحقق بها تلك المنجزات، فيقول: [41]

سـأطلبُ حقـي بالقنـا مـن مشـايخ كـأنُّهمُ مـن طـول مـا التثمـوا مُـردُ
ثقـال إذا لاقـوا خِفـاف إذا دُعُـوا كثيـرٍ إذا شـدّوا قليـل إذا عـدّوا

(35)اليازجي، ناصيف، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص 238)
(36) فسه، (ص 131)
(37)نفسه، (ص45)
(38)نفسه، (ص 78)
(39)نفسه، (ص123)
(40) اليازجي، ناصيف، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب،(456)
(41)نفسه، (ص 20)

إذا شئت حفّت بي على كل سابح رجالٌ كأن الموت في فمها شهد

واضح أنه يعد أن يكون على رأس طائفة من الرجال المدججين بالسّلاح والمحنكين البواسل الذين يستهينون بالموت ويستعذبون مذاقه في سبيل إدراك حقه غير أن تغييره بـ (إذا شئت) يكشف عن واقع يتجافى عن بلوغ تلك الطموحات العريضة، ولذلك انبرى في قصيدة أخرى يشتم زمانه وأهله وواقعه إذ غدا لا يبصر غير الأوغاد والجبناء العمي، وغير أصحاب الهمم الخائرة، فيقول:[42]

أذمّ إلى هذا الزّمان أُهيله فأعلُمهم فدمٌ وأحزمهم وغدُ
وأكرمهم كلبٌ وأبصرهم عم وأسهدهم فهدٌ وأشجعهم قرد
خليلاي دون الناس حُزنٌ وعبرةٌ تلجُّ على فقد من أحببت ما لهما فقدُ
دموعي بالجنون كأنما جُفوني لعيني كلّ باكية خدّ

فنراه يستنكر تقاعس الناس وخمولهم وقعودهم عن العمل والسّعي والطموح وقبولهم بالذّل ولاستكانة، فيقول [43].

إني نزلتُ بكذّا بين ضيفهم عن القرى وعن الترحال محدودُ
جودُ الرجال من الايدي وَجوُدهم من اللسان فلا كانوا ولا الجُودُ
ما يقبضُ الموت نفساً من نُفوسِهم إلا وفي يده من نتنها عُودُ

وهو أمر طبيعي عند رجل كهذا عاش حرّاً أبيّاً و ناضل من أجل حريته وكرامته، وظلّ يطلب العلا حتى وصلت به همته العالية طلب الحكم والولاية، فيقول[44]

عجبت لمن له قدٌّ وّجدٌّ وينبو نبوة القضم الكهام
وَمنَ يجدُ الطريق إلى المعالي فلا يذرُ المطيَّ بلا سنام
ولم أر في عيوب الناس شيئاً كنقصِ القادرين على التمام

فهو يعيد أزمة الأخلاق التي يعيشها العصر إلى المادّة وتكالب الناس عليها، فقد غالوا في حبّ المال، وأصبح هدفاً اعتقدوا أنّه يوصلهم إلى الزّعامة والشهرة، فاصطنعوا المذاهب والطرق وتاجروا بالدّين، وسعوا إلى خلق الرئاسات وتحطيم الدّولة وتمزيقها فتراه ينزل غضبه وسخطه على تصاريف الدّهر واحواله ويعد الزّمان بالثورة، ولو لقي حتفه؛ لأن الصمود في معركة الشّرف ونيل الشهادة عنصران يضيئان طريق المرء ويسموان به إلى الأعلى، فيقول[45]

أذاقني زمني بَلوى شَرقتُ بها لو ذاقها لبكي ما عاشَ وانتحبا
وإن عَمَرتُ جَعلتُ الحربَ والدةً والسَّمهريُ أخاً والمشرفي أبا
بكل أشعث يلقى الموتَ مبتسماً حتى كأنّ له في قتلهِ أربا

(42)نفسه، (ص 273)
(43)نفسه، (ص 273)
(44)نفسه، ص(81)
(45)اليازجي، ناصيف، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ص (33)

فالدّهر نفسه يعجز عن مجابهة الشاعر، وسيلقى رجلاً صلباً قويّاً مشرئب النّفس، تتوق نفسه إلى بلوغ المعالي وسيلزم الحرب طوال عمره حتى يدرك مطالبه. ونجد أن مشكلة المثقف الشاعر لم تتجسد فقط مع الدّهر والنّاس حين أظهر قلّة قدراتهم العقلية وضعفهم، بل امتدّ الأمرُ إلى وجود الحسّاد الذين زادوا في تنغيص عيشه لأنّه يجدهم في كلّ مكان يحلّ به، إنّهم كالمرض العضال الذي لا دواء له، فهو لا يدري علام يحسدونه، أعلى حياته؟ أم على مصائبه؟ ولكن هيهات لهذا الحاسد الأحمق أن يلحق به؛ لأنه فرس أصيل تجاوزه وأطلق خلفه الغبار وهو البرق في سرعته فلا يجاري، يقول[46]

إنـــي وإنْ لُمـــتُ حاســـديَّ فمـــا أُنكِـــرُ أَنّـــي عُقوبـــةُ لهُـــمُ
وكيـــف لا يُحسُـــد امـــرؤٌ علـــمٌ لـــه علـــى كـــلّ هامـــةٍ قَـــدَمُ

ويردف قائلاً[47]

فـــأبلغ حاســـديّ عليـــك أنـــي كبـــا بـــرق يحـــاول بـــي لحاقـــا

وقوله أيضاً [48]

إذا شـــاء أن يلهـــو بحليـــة أحمـــق أراه غبـــاري ثـــمّ قـــال لـــه الحـــق
ومـــا كمـــد الحسّـــاد شـــيئاً قصـــدته ولكنّـــه مـــن يـــزحم البحـــر يغـــرق

فهو لا يقصد هؤلاء النّاس، وإنّما هم الذين يتطاولون فيغرقون في بحر فنّه، ومثلهم لقمة سائغة على مائدة المتنبي قادر على كشف معادنهم ونفسيّاتهم، فيقول [49]:

إذا مـــا النّـــاس جـــرّبهم لبيـــب فـــإني قـــد أكلـــتهم وذاقـــا
فلـــم أَر ودّهـــم إلاّ خـــداعا ولـــم أرديـــنهم إلا نفاقـــا

فهم يحسدونه ولا يدرون أنهم يحسدونه على مصائبه التي تبكيه فيقول [50]

مـــاذا لقيـــت مـــن الـــدنيا وأعجبُـــهُ أنّـــي بمـــا أنـــا بـــاكٍ منـــه محســـود
إنـــي نزلـــت بكـــذا بـــين ضـــيفُهم عـــن القـــرى وعـــن الترحـــال محـــدود

(46)،نفسه (ص 33)
(47)نفسه، (ص45)
(48)نفسه، (ص52)
(49)نفسه، (ص 31)
(50) اليازجي، ناصيف، العرف الطيب في شرح ديوان المتنبي، (ص40).

فعجباً لأمر حسّاده ما أكثر أنواعه، فهم ليسوا فقط أُدباء ونقّاداً بل إنهم عائبون في كل بلد، وفي كل قصر أيضاً يسافر فيجدهم يستقبلونه على بوابات الأوطان، ينظر إلى نفسه فيجدهم من حوله ومن أمامه، ولا بدّ وأن فيه شيئاً يبعث على الحسد والغيظ كالشخصية أو الشاعرية أو الشهرة أو المكانة، ولولا ذلك لما تكاثف حوله الحسّاد.

"فقد قدّر للمتنبي أن يكون من أبرز الشعراء العرب الذين تركوا تأثيراً عميقاً فيمن تلاهم من الأدباء، وكان من دواعي ذلك التأثير ظروف حياته الخاصّة، وتعصبه للعرب، ونزوعه إلى الثورة والتمرد وتطرف النقد في تناول فنه، ومزايا شعره العديدة. (51)

لكن الشعراء الذين قلّدوا المتنبي، وهم كثر قلّدوه في عباراته وصياغاته، ولكنهم عجزوا عن تقليد صوته في السّمة الأساسية لشعريته، فحتى هذا التقليد النّاجح ظاهريّا في حالات كثيرة لا يماهي صوت صاحبه بصوت المتنبي. (52)

وهذا ينم عن فرادة سلطته المعرفية التي أثارت متلقيه من كل طبقة:(53) فقد أحس الشعراء بتفتح شاعريته، ونضج قريحته، وأنّ كفة الصّراع تميل ناحيته، إذ نال المتنبي حظوة جليلة في بلاط سيف الدولة الذي أحبّه وقرّبه إليه، وجعله شاعره المفضل، ينتقل معه أينما حلّ، فلم يفارقه حتى في المعارك التي كان يخوضها ضدّ المنشقين فأخذوا العهد على أنفسهم بتتبع المتنبي، فاتحدت أهدافهم وتلاحقت مصالحهم وراح كل واحد منهم يشن عليه حرباً هوجاء. (54)

فبدأ الضعف يتسلل إلى نفس المتنبي، ويشعر بالاغتراب إذ وجد نفسه منعزلاً عن مجتمعه يعاني من الغربة التي تعذبه وتزيده كبرياءً وسرطانية الذات الفردية، ولكنها صدمت مبكراً على صخرة الحياة والواقع من حولها، وكانت الصدمة جبارة قوية، فعبّر عنها بمزيد من الأسى والسخط على هذه الدنيا. فحاول المتنبي إنقاذ نفسه من مرارة هذا الواقع بالتعالي والشعور بالأنا ليخفف من وطأة إحساسه بالاغتراب الذي أثقل كاهله" كان المتنبي وحيداً وكان واحداً في جهة، ووضع الأمة بكل عناصر فسادها في الجهة الثانية، وكان عليه أن ينقل ذلك الوضع إلى الجهة المعادلة شرسة وقاسية، ولكنها الواقع ولا مناص من مواجهتها ومن يتطلع لذلك لا بدّ أن يفهمه شعور بالرّفعة والتميّز.(55)

وتعد الأنا من أكثر الألفاظ وروداً في شعر المتنبي، وقد ارتبطت بمختلف الأغراض الشعرية ومردّ ذلك إلى أنه " كان شديد الإحساس بنفسه يرى أنه أفضل الناس وأن مواهبه تدانى، ويتألم أشد الألم إذا مسّته كلمة أو لم يحصل على ما يريد، إذ هو يرى أنه أهل للتمجيد والكرم"،(56) فلم يكن من سبيل أمام الشاعر إلا إفساح الخطاب لأنا المعرفة والفكر مع إجراء موازنة ضمنية مع الشعراء الآخرين كي يكون أقدر على امتداح الذّات، بابتكار المعاني التي لم يسبق إليها، بينما دار الآخرون في فلك ما قيل من معانٍ سابقة وعليه فقد كان الحسد نتيجة حتميّة لسبقه المعرفيّ وتقدمه الشعريّ، ومنطقة المحتشد بدواعي الابتداع والصّدارة، وهذا الذي ما كان دواؤه سوى الانشغال عن الاشتغال به، إذ به تعيا القلوب والآمال، التي تكمن في إحساسه القويّ وشاعريته الفذّة التي لا تضاهى فيقول:(57)

أنــا الســابقُ الهــادي إلــى مــا أقولــهُ إذ القـــول قبــــل القـــائلين مقـــول
ومـــا لكـــلام النـــاس فيمـــا يريبنـــي أصـــــــول ولا للقائليـــــــه أصـــــــول

(51)العيسى، مصطفى أثر المتنبي في أعلام الشعر الاندلسي،(ص211)
(52)أدونيس، علي أحمد سعيد اسبر، وسيبقى الحوت الأزرق (الهوية، الكتابة) ، ص (17)
(53)أورنة، سماح عدنان، التلقي الجمالي في النقد العربي القديم، شعر المتنبي نموذجاً في القرنين الرابع والخامس الهجريين، (ص211)
(54)القلماوي، سهير، هل نبعث المتنبي، جملة الشعر، ع1، ربيع ، 1972، القاهرة
(55)الجنيدي، إنعام، المتنبي والثورة، (ص 23)
(56)عوض إبراهيم، لغة المتنبي (دراسة تحليلية)، (ص 151)
(57)اليازجي، ناصيف، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص 164)

أعـادي علـى مـا يوجـب الحـبّ للفتـى وأّهـــدأُ والأفكـــار فـــيّ تجـــول
ســـوى وجـــع الحسّـــاد داو فإنـــه إذا حـــلّ فـــي قلـــب فلـــيس يحـــول

فما كان من المتنبي إلى أن شدّ رواحله، وعزم على الرّحيل مستعظماً نفسه، يقلقل سكون النّاس وخضوعهم باعثاً فيهم الهمم، فإذا بالنّاس يتساءلون عن هذا الذي حرّك سكونهم ماذا يُريد، فيقول[58]

تغـــرّب لا مســـتعظماً غيـــر نفســـه ولا قـــــابلاً إلا لخالقـــــه حُكمـــــا
ولا ســـــالكاً إلا فـــــؤاد عجاجـــةٍ ولا واجـــــداً إلا لمكرمـــــة طعمـــــا
يقولـون لـي مـا أنـت فـي كـلّ بلـدة ومـا تبتغـي مـا أبتغـى جـلّ أن يسـمى

إنها الحركة الدائمة التي لا تعرف استقراراً، وتأنف المكان وتغادره لتصبح الألفة في الارتحال، وتتبدل علامات الانتماء حيث أصبح الرحيل انتماء، وظهر ناقته أرضه، فالقلق الفكري واهتياج الأفكار بداخله وأمل تحقيقها أدّى به إلى هذا الرّحيل القِلق الذي لا يعرف له وجهة، فيقول: [59]

ألفـــتُ ترحّلـــي وجعلـــتُ أرضـــي قُتـــــودي والغريـــــريّ الجُـــــلالا
فمـــا حاولـــتُ فـــي أرض مُقامـــاً ولا أزمعـــــتُ عـــــن أرض زوالا
علـــى قلـــق كـــأن الـــريح تحتـــي أُوجّههـــــا جنوبـــــاً أو شـــــمالاً

ولأنَّ الفكر هو الذي يحرّك الإنسان، ويمتد به الزّمان والمكان، فقد عبّر المتنبي عن ذلك بأنّ سكونه لا يعني سكون فكره، فيقول :[60]

أعـادي علـى مـا يوجـب الحـبّ للفتـى وأهـــدأ والأفكـــار فـــيّ تجّـــول

ومن ثم فإنّ الفكر الذي يحمله، وعدم قدرة النّاس على فهمه أو التعامل معه من أجل تحققه أدّى به إلى القطيعة بينه وبين النّاس، فذمّ النّاس وذمّ الزّمن والدّنيا.

فاتخذ من السّخرية وسيلة لإيقاظ الضّمائر النائمة وحثّ الناس على التنبيه والوعي؛ لأنّ أسلوب السّخرية هو احدى الوسائل الفنية والنفسية البارعة في محاربة الداء المستشري في مجتمعه ومحاولة فضح عيوبهم، وكشف أساليبهم المسلطة على رقاب النّاس مبرزاً نواياهم العدوانية وخططهم التعسفية، ومن ذلك وصفه لكافور بالكلب ضعة ولؤماً وخسّة وسقوطاً يسيء إلى سراة القوم وعليتهم، والنّاس تسبّح بحمده لما اتفق له من السّلطان،وهو يضطر إلى مدحه قسراً، وأنه ما لم يكن ليخطر له– ولو على سبيل الحلم – أن صحبته للدّهر ستريه مثل هذا العبد حاكماً مطاعاً في مصر، يعبّد الأحرار، ويسوّد العبيد وأنّه سيضطر يوماً إلى مدح عبد أسود يسيء إليه، ولم ينسَ أن يلوح ساخراً بسواد لونه حين قال (أبو البيضاء) مع أنّ كنية كافور المعروفة (أبو المسك)، فهو يحقد على كافور بخاصّة أنّه عبد يستذله، وهو بالتالي يمثّل لنا اختلال القيم والمقاييس في ذلك العصر، فالإنسان لا يرتفع ويسمو بعلمه وكفاءته بل بقدرته على الاحتيال والاغتصاب،

(58) نفسه، (ص 164)
(59)نفسه، (ص227)
(60) اليازجي، ناصيف، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، (ص188)

ومن هنا كان استبداد كافور بالمتنبي عنواناً لذلك العصر الذي تناقضت فيه المفاهيم فبدلاً من أن يحكم الحرّ العبيد، نرى العبد يتحكّم بالحرّ، وبدلاً من أن يتحكّم العالم بالأميّ الجاهل، نرى الأميّ الجاهل يتحكم بالقول، ويمكن القون إنّ القوة هي التي كانت تسيطر في ذلك العصر على الحق، وبهذا تتعدّى نقمة المتنبي كافور إلى واقع البيئة التي يعايشها، فيقول:(61)

وما كنتُ أحسبُني أحيا إلى زمن يسيءُ بي فيه كلبٌ وهو محمود
ولا توّهمتُ أنّ الناس قد فقدوا وأنّ مثل أبي البيضاء موجود
جوعان يأكل من زادي ويمسكني كي لا يقال: عظيمُ القدر مقصود

وتشتّد نبرة السّخرية الموجهة إلى مجتمعه حتى يستهزِئ بأولئك الذين يتّخذونه من الجبن ذريعة لتبرير ضعفهم، ومواقفهم في الحياة ثمّ يدعو الجبان أن يخلع نفسه هذا الثوب، وأن يقف قويّاً في وجه تحديات العصر، فيقول:(62)

يرى الجبناء أنّ العجز عقلٌ وتلك خديعةُ الطّبع اللئيم
وكلّ شجاعة في المرء تُغني ولا مثل الشجاعة في الحكيم
وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفتهُ من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الآذان منه على قدر القرائح والعلوم

ونراه في موطن آخر يعلن غضبه على النّاس، يريد منهم أن يكونوا رجالاً أشداء يسمون إلى المعالي، فإذا هم يعلنون نصرهم على جرذ، فيقول ساخراً: (63)

لقد أصبح الجرذ المستعير أسير المنايا صريع العطب
رماه الكنانيّ والعامريّ وتلاه للوجه فعل الغرب
كلا الرّجلين اتلاّ قتله فأيكما غلّ حُرّ السّلبْ
وأيكما كان من خلفه فإنّ به عضة في الذّنب

" وجاءت هذه السخرية سخرية موجعة تضحك وتبكي في آن، ويصف طه حسين هذه الابيات بقوله:" فلن نرى سخرية ألذع من هذه السخرية، ولا هجاء أمضّ من هذا الهجاء، ولن نرى أشدّ من هذا الازدراء للحاضرين من اهل الكوفة المعاصرين له"(64)

فالمتنبي لم يقصد الضّحك والإضحاك، وإنّما قصد تلك السّخرية المخزية التي تقلب الصورة، فكما أنّه من العار أن يفاخر الرّجلان في قتل جرذ، حيث جعله جرذاً فارساً لا يشق له غبار، فنراه يستعظم فعلهما بطريقة كاريكاتورية، لأنهما ظنّا أن فعلهما عظيم.

فقد وجد المتنبي في عصره التّناقضات كافّة، فهناك تفاوت في الطبقات على أساس من الثروة، وعلى أساس من الجنس، وهناك تسلّط من الحكّام الذين خضعوا وذلّوا للترك، ولم يعد لهم إلا إرضاء نزواتهم وإشباع شهواتهم وأحسّ بأنّ النّفاق

(61)نفسه ، (ص63)
(62)نفسه، (ص45)
(63) اليازجي، ناصيف، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب،(ص229)
(64)حسين طه، مع المتنبي، (ص41)

يستشري في الأمة، وأنّ كرامة الإنسان تهدر من أجل لقمة العيش، وأن الناس لا يقدّرون إلاّ من يملك، وفي خضم هذه الأمور انعدمت القيم والمثل وسيطرت المادة على كل شيء، فكانت المتناقضات تتآزر معاً، لتغذي روح المتنبي الساخرة، وتغرس في نفسه سخرية ناقدة شاملة، فقد امتصّت نفسه ما في عصره من تناقضات وفوارق،وأخذت هذه النّفس المجرحة تفيض بين حين وآخر حزة هازئة عابثة، تنعي تحامق الدّهر، وعبث الأقدار التي تحرم المحرومين وتغدق على المتخمين، فكان أن صوّر مشاهداته ومسموعاته تصويراً حيّاً.

ومن هنا تولّدت لديه أزمة العروبة، فكان أن ثار على الحكّام الأعاجم اللاهين العابثين، الذين يستأثرون بخيرات البلاد ويضطهده العباد، والمتنبي لذلك يعد بأن يتصدى لهم، ويطيح برؤوسهم بقدراته وعزيمته وبما يمتلك من أدوات تغيير وقتال، فجاء معجمه الشعريّ حافلاً بألفاظ الطعن والسّيف والرّمح والضرب والخيل والموت والقتل، وأشباهها من هذا الحقل الدلالي الحربي العنيف، وبما يتفجّر في نفسه من حقد ونقمة على ظرفه التاريخي، ومن فيه من الملوك الخالعين وبخاصة اعتقاده أنّ حال العرب لا يستقيم في ظلّ حاكم أعجميّ، فهو يقول في صدر قصيدة مدح بها عربيّا من تنوخ، وينعى فيها موات الهمم بقبول الناس سلطة الأعاجم، فيقول: (65)

أحـــقُّ عـــافٍ بـــدمعك الهِمـــمُ وأحـــدثُ شـــيئاً عهـــداً بهـــا القَـــدمُ
وإنّمـــا النـــاسُ بـــالملوك ومـــا تفلـــحُ عـــربٌ ملوكهـــا عَجَـــمَ
بكـــلّ أرض وطئتُهـــا أمـــم ترعـــى بعبْـــد كأنهـــا غَـــنَمُ
يستخشـــن الخَـــزَّ حـــين يلمسُـــهُ وكـــان يُبـــري بظفـــره القلـــم
إنـــي وإن لمـــت حاســـديَّ فمـــا أُنكِـــرُ أنّـــي عقوبـــةٌ لهـــمُ
وكيـــف لا يحســـد امـــرؤ علـــمٌ لـــه علـــى كـــلّ هـــامٍ قـــدم

فأرض العرب التي يبصرها الشاعر كانت في قبضة أولئك الحكّام الاعاجم وهو ما يفجّر في نفسه الحسد والألم والسخرية والتسامي في آن معاً فنراه يدعو الناس إلى عدم الاقتناع بما دون همة المرء وتطلعاته فالموت في سبيل غاية نبيلة وغيرها سيان، وهو أوّل من يقتحم المعركة ويتحدى التقوقع والانطواء، ويدعو إلى التّحرّر والانطلاق وعلى الرغم من الحوادث المؤلمة التي هزّت كيانه إلاّ أن هذا لا يبعث فيه اليأس الذي يفضي به إلى الرّضوخ لواقعه والجنوح إلى الضّعف، بل يفجّر من هذه النفس المتعبة والمثخنة بالجراح والآلام، الاعتزاز بالنفس ورفضه أن يكون واحداً من بين هؤلاء الضعفاء، إنّه يبعث من هذه الرّوح الحزينة هذا الأمل الذي يتجسد في هذا الإقدام، ويخلق لنفسه من عالم البؤس والشقاء عالم السّعادة، ومن الخيبة الانتصار، فيقول:(66)

إذا غـــامرتَ فـــي شـــرفٍ مَـــرُومٍ فـــلا تقنـــع بمـــا دُون النُّجـــوم
فطعْـــمُ المـــوت فـــي أمـــرٍ صـــغيرٍ كطعـــم المـــوت فـــي أمـــرٍ عظـــيم
ســـتبكي شـــجوها فرســـي ومُهـــري صـــفائح دمعُهـــا مـــاءُ الجُســـوم
قَـــربنَ النّـــار ثـــمّ نشـــأن فيهـــا كمـــا نشـــأ العـــذارى فـــي النعـــيم

فمفهوم الثورة عند المتنبي" تنبني على مبدأ الرّفض لواقع متدهور يريد الثّائر تغييره أو لقيد يحدّ من انطلاقاته، فيعتزم تحطيمه، وهو يقوم أيضاً على مثل أعلى يطمع الشّاعر في ثورته لتحقيق، يرى فيه استكمالاً لذاته ونهوضاً ببني جنسه،

(65) اليازجي، ناصيف، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، (ص87)
(66) اليازجي، ناصيف، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص229)

وتدعيماً لكيانهم في هذا الوجود ولا يخلو الثّائر وسلوكه في إقراره لذلك المبدأ، ونضاله لبلوغ تلك الغاية من تحدّ للعراقيل والحواجز في جرأة وشجاعة"[67].

فيثور المتنبي على هذا الوباء الذي يسري في نفوس أهل عصره داعياً في النّاس إلى نفض غبار الجبن عن نفوسهم، والتّسلح بسلاح القّوة والإقدام ففيهما تكمن عزّة الإنسان وحريته ومن حاد عن هذه الطريق فإنّ مآله الذّلّ والاحتقار، فيقول:[68]

إذا كنت ترضى أن تعيش بذلّة فلا تستعدّنَ الحُسام اليمانيا
ولا تستطيلن الرماح لغارةٍ ولا تستجيدنّ العتاق المذاكيا
فما ينفع الأسدّ الحياء من الطّوى ولا تتّقى حتى تكون ضواريا

فأمله الوحيد هو نزع الخوف والضعف من القلوب، والاندفاع نحو حمل راية الكفاح والجهر بالحرب في سبيل تحقيق الإنسان لأنه من أراد أن يكون عزيزاً بين النّاس، فعليه بالسّيف فهو الحاجز بينه وبين أن يصاب بالذّل والهوان، فالثائر في وجه غارات العدوّ والحامي لثغور أمته، والرّاد لهجومات الظالمين يكسب رفعة بين أهل مجتمعه.

ولا يفتأ المتنبئ يوقظ مجتمعه ويشحنه بالوعي ويحرّك أحاسيسه، ويخاطب ضميره بأسلوب شائق يطفح بالمعاناة الأليمة التي تمزق نفسه لعله يستفيق من سباته العميق، وينبه إلى ضرورة الاحتراز من الوقوع في شرور الذّل، وقد شحن المتنبي نفسه ضد صباه بطلب العزّ والتّرفع والتّعالي إلى أن ينزل منازل تحط من قيمته، وبالتالي تصّنفه في زمرة الضّعفاء والخاملين، فقد شب على مواجهة الضّعف سالكاً طرق الحريّة والكرامة يمشي بكبرياء وتؤدة دون أن يخنع ويطاطئ رأسه لأصحاب الحكم والسياسة، فيقول:[69]

وما أنا والخَمرُ وبطيخةٌ سوداء في قشر من الخيزران
يشغلني عنها وعن غيرها توطيني النّفس ليوم الطعان
وكلّ نجلاء لها صائكٌ يخضُب يدي والسنان

فهو يدعو إلى طلب حقّه، ويدفع النّاس إلى الصمود في سبيل الوصول إلى غاياتهم؛ لأن تحقيق الغايات لا يتم إلاّ عن طريق مواصلة طلبهم بقوّة وصبر دون وهن أو ضعف، صرخات غاضبة على الضعف الذي يسري في نفوس أهل عصره، ويرفض بقوّة وإباء هذا الوضع المأساوي، ويريد من قومه الثورة على الخنوع والذّل، فقد خلع المتنبي جلباب الخوف، وعقد العزم على الثورة المسلّحة والسّير في طريق النّضال المستمر؛ لأنها الحافز إلى تحقيق مطالبه والوصول إلى أهدافه؛ لأنّه صاحب قضية ظل ينادي بها من أجل أمته؛ ولانه الرّافض للقهر والظلم فيقول:[70]

أمالكَ رقّي ومن شأنه هبات اللّجين وعتق العين
دعوتك عند انقطاع الرجا ء والموت مني كحبل الوريد
دعوتك لما براني البلاء وأوهن رجلي ثقل الحديد

" فشعره جاء عبارة عن ثورة رجل سياسي عزيز يرقب ما يحيط به ويطرح الرجل العربي ما يؤمله ويؤمل بلوغه في سطوته وسلوكه وشوكته وكل ما في نفسه من أهداف تحدّدها له عروبته واعتزازه بها"(71)

(67)الثورة في الفكر العربي المعاصر، سلسلة الدراسات الأدبية، (ص93)
(68)، اليازجي، ناصيف ،العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، (ص260)
(69) اليازجي، ناصيف، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، (ص 249)
(70) نفسه، (ص132)

كما ويتضح مدى انعكاس بيئة المتنبي في شعره خصوصاً إذا ما علمنا أنّ القرن الرّابع الهجريّ كان مسرحاً للأحداث الدّموية والمأساوية التي طبعت القرن، حتى تميّز بتحولات سياسيّة كبرى أدّت إلى اضطراب الحالة السياسية، فقد كانت بغداد قمّة الصّراع الفكري والاجتماعي والسياسي، لكن ما لبث أن دبّت في جسم الخلافة العباسية عوامل الضعف والانحطاط، ومن ذلك ضعف السلطة المركزية في الخلافة العباسية وسوء أحوال الطبقة العامّة، وتكدّس الثروة في أي طبقة اجتماعية محدودة العدد، وانتشار الحركات الثورية والنزاعات الاجتماعية والرعايات الدينية للسلطة المركزية.[71]

فكان أبو الطيب حاقداً على الخلفاء العرب؛ لأنهم بضعفهم وتخاذلهم وتهالكهم على المال واللذّات، أفسحوا المجال أمام التّرك والفرس والديلم والسّلاجقة للتّحكّم في مصير الخلافة العربية واللّعب بمصير الخلفاء والمسلمين، فأصبح الحكم الفعلي لأولئك الأغراب المتسلطين بقّوتهم الطّامسين للهويّة العربية وأما الخلفاء العباسيين فلم يبق لهم سوى الاسم بعد تفريطهم في حقهم السياسي والديني،وهذه فرصة استغلها الأمراء والقادة العسكريون والولاة، ليستقل كل منهم بمنطقة نفوذ خاصة به ليقتطعها من جسم الدولة الأم، فتمزقت الدولة بسبب طمع الولاة، وحبّهم للمال والنفوذ،[72]وكان هذا الوضع السياسي الممزق يؤلم الأحرار كالمتنبي الذي غدا مرتحلاً في البلاد باحثاً عن المثال في الحاكميّة.[73]

وكان المتنبي مدركاً من غير شك أن آراءه وأقواله هذه وأمثالها كثير ستجرّ عليه المصاعب، ولكنه لم يهن بل ظلّ يجهر برأيه هذا في كلّ حين على امتداد رحلة عمره منذ صباه الأول وهو في الكتاب إلى أن قتل علي تفاوت في الحدّة والشدة والعنف بحسب الظروف والشخوص الذين ارتبطت بينه وبينهم الأسباب فكثر لهذا حسّاده والنّاقمون عليه، فكان ان سجن وهو دون سن العشرين حين كان في بادية الشام بعد خروجه لأوّل مرة من العراق، " إذ كان _ كما يقول الثّعالبي _ يدور حبّ الرّياسة في رأسه، ويظهر ما يضمر من مكامن وسواسه"[74]

أو كما قال معاصره ابن جنيّ "وكان قوم وشوا به إلى السلطات في صباه، وتكذبوا عليه، وقالوا له قد انقاد له خلق كثير من العرب وقد عزم على أخذ بلدك، أو حشوة منهن فاعتقله وضيّق عليه".[75]

فكان السّجن بمثابة المكان الذي بدا فيه ضعف المتنبي وهو قتل مع وقف التنفيذ؛ لأنه سلب لحرية الإنسان وشخصه، وقد تصاحبه كل مظاهر الموت من حزن وعجز وعدم إمكانية التحقق الإنساني في شخصه وعنفوانه وقد عانى كثيراً من مرارته في غير مرحلة من مراحل حياته، فقال مستعطفاً لإخراجه من السجن[76]

أمالـــك رقـــي وَمَـــن شـــأنه هبـــاتُ اللّجـــين وعتـــق العبيـــد
دعوتـــك عنـــد انقطـــاع الرّجـــا ء والمـــوتُ منّـــي كحبـــل الوريـــد
دعوتـــك لمـــا برانـــي الـــبلاء وأوهـــن رجلـــي ثقـــل الحديـــد
وقـــد كـــان مشـــيهما فـــي النّعـــال فقـــد صـــار مشـــيهما فـــي القيـــود
وكنـــت مـــن النّـــاس فـــي محفـــل فهـــا أنـــا فـــي محفـــل مـــن قـــرود
تعجّـــل فـــيّ وجـــوب الحـــدود وحـــدّي قبيـــل وجـــوب السّـــجود

(71) انظر: السامرائي، فيصل، الدولة الحمدانية في الموصل وحلب، (59/1)
(72)نظر: الشيخ،حفيظة، معنى المعنى عند أبي الطيب بن السيفيات والكافوريات،(ص58)
(73)انظر: الزهراني، جمعة، الإنسان في رؤية ابن الرومي والمتنبي بين المدح والقدح _ رسالة ماجستير، (ص97-199)
(74)يتيمة الدهر، (113/1)
(75) شرح ديوان المتنبي المسمى المفسّر، (م634/2)
(76) اليازجي، ناصيف، ، العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب، (ص68)

ولم يلق صوته أية آذان مصغية، فعاش في غربة مقيتة بين أناس لا ينتمي إليهم ولا ينتمون إليه، كل هذا وهو ما زال حدثاً لا يجوز عليه مثل هذا العقاب، فقال:[77]

أهـــون بطـــول الثـــواء والتلـــف والسّـــجن والقيـــد يـــا أبـــا دلـــف
غيـــر اختيـــار قبلـــتُ بـــرّك بـــي والجـــوع يرضـــى الأســـود بـــالجيف
كـــن أيّهـــا السّـــجن كيـــف شـــئت فقـــد وطّنـــتُ للمـــوت نفـــس معتـــرف
لـــو كـــان سُـــكناي فيـــك منقصـــة لـــم يكـــن الـــدّرّ ســـاكن الصَّـــدفِ

فلقد شكل السجن بالنسبة للمتنبي صراعاً بين الحياة والموت لأنه قد لا يستطيع معه ممارسة طقوس الحياة، وإنما يعيش فيه حياة العذاب والمعاناة والألم والحزن والأسر، صحيح أنه قال هذه القصيدة وهو حدث، إلاّ أن مشاعر الضعف والعجز بادية عليه لكنّه لا يقلل من اعتزازه بنفسه، ولعل الصورة في البيت الأخير توضّح ذلك، فالسّجن لا يقلل من شأنه ولا من مكانته فهو كالدّر لا يقلل من قيمة وجوده في الصّدف الذي لا قيمه له مقارنة بقيمة اللؤلؤ، فلقد أذكى هذا السجن في نفس المتنبي الشعور بالتناقض والازدواجية والتمزق، سيشعر في أعماقه أنه أعظم من القوم الذين يتسلطون عليه، لكنه يعجز في الآن ذاته عن إعلان هذا الشعور، أو بالأحرى عن تحقيقه وظلّت أحلامه تتدافع وراء جدران نفسه تذكي في أعماقه حسّ الندم والبراح والهزيمة وهذا الواقع عظيم الأهمية في الدلالة على حقيقة الفخر في شعر أبي الطيّب، فالشعور الداخلي بالتفوق الذي حرّمته المحاذير الخارجية كان يتنفس في شعره فأصبح يحقق في الكلام ما عجز عن تحقيقه الأفعال، لهذا رأينا أن سحابة الاصفرار والقنوط تغشي شعره في أخريات حياته، ويتولاه شعور بالهزال والتشاؤم أضفى على صورة ومعانيه غلاله وجدانية عميقة البث والإيحاء، فيقول: [78]

مـــا مقـــامي بـــأرض نخلـــة إلاّ كمقـــام المســـيح بـــين اليهـــود
أنـــا فـــي أمّـــة تـــداركها اللـــ ـــه غريـــب كصـــالح فـــي ثمـــود

ثم نراه يتعرّض بعد ذلك بسنوات لمحاولتي اغتيال، كانت الأولى على يد غلمان أبي العشائر حين كمنوا له، فلماّ مرّ بهم " ضرب واحد منهم بيده إلى عنان فرسه، فسلّ أبو الطيب سيفه فخلاه الرجل...ورمى أحد الغلمان الفرس بسهم فأصابه في نحره، فانتزعه أبو الطيب، ثمّ كرّ عليهم، فضرب احدهم فقطع رأسه.[79]

وجرت محاولة الاغتيال الثانية على يد أحد عبيده، فقد سرق هذا العبد أحد أفراسه، غير أنّ المتنبي عاجله بطعنة قتلته قبل أن يقتله هذا العبد، وقتل كلّ من تآمروا معه من أشياعه وفي ذلك يقول:[80]

أعـــــددت للغـــــادين أســـــيافا أجـــــدعُ مـــــنهم بهـــــن آنافـــــا
لا يـــــرحم الله أرؤســـــاً لهـــــم أطـــــرن عـــــن هـــــامهن أقحافـــــا
إذا امـــــرؤ راعنـــــي بغدرتـــــه أو ردتـــــه الغايـــــة التـــــي خافـــــا

(77) نفسه ، (ص 59)
(78) اليازجي، ناصيف ،العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، (ص64-65)
(79)انظر: عزام، عبد الوهاب، ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام، (ص 9)
(80) اليازجي، ناصيف،، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، (ص 128-129)

وظلّ المتنبي مع ذلك لا يكفّ لسانه عن القدح بملوك عصره وازدرائهم وتحقيرهم، وازدراء الناس الذين رضوا أن يسوسهم حكّام جبناء، فقال عنهم وعن نفسه في مقايسة مثيرة في صدر قصيدة مدح بها عربياً من عِجل، كأنه كان يحرّض أولئك الأمراء العرب على الأعاجم اصحاب الإمارات الكبيرة ليسقطوهم، فيقول:[81]

فـــؤاد مـــا تُســـليه المُـــدامُ وعُمـــرٌ مِثـــلُ مـــا تَهـــبُ اللّئـــامُ
ودهـــرٌ ناسُـــه نـــاسٌ صـــغار وإن كانـــت لهـــم جثـــث ضـــخامُ
ومـــا أنـــا مـــنهم بـــالعيش فـــيهم ولكـــن مَعـــدنُ الـــذهب الرّغـــامُ
أرانـــبُ غيـــرَ أنهـــم ملـــوكٌ مُفتّحـــة عيـــونُهم نيـــام

كما قال في معنى مقارب في صدر قصيدة يمدح بها عربيّاً كان قاضياً في أنطاكية.[82]

وإنمـــا نحـــنُ فـــي جيـــل سواســـيةٍ وشـــرّ علـــي الحـــرمين سُـــقم علـــى بَـــدن
حـــولي بكـــل مكـــان مـــنهمُ خلـــقٌ تُخطـــي إذا جئـــتَ فـــي اســـتفهامها بمـــن
ولا أعاشـــرُ مـــن أملاكِهـــم أحـــداً إلاّ أحـــق بضـــرب الـــرأس مـــن وثـــن
إنـــي لأعـــذرهم ممـــا أعـــنّفهم حتـــى أعنـــف نفســـي فـــيهم وإنـــي

وهذه الثورة العنيفة على حكّام عصره كانت – كما ذكرت– مطالع قصائد المدح، وذلك يعني أن الرّغبة في الانتقاد من أجل التغيير كانت أهمّ عنده من تدبيج النّعوت الظنانة، والأوصاف الخدّاعة التي يرضي بها غرور ممدوحيه، وهو بذلك كأنما يضع للأمراء العرب بعض ملامح الثورة، وأدوات تنفيذها، وأنه لذلك لم يتوان عن جلدٍ نفسه ببيع شعره في سوق الكساد مع أن زمنه يحثه حثاً على معاقرة المنايا وقيادة الخيول، وحمل الرماح ليسفك بها دماء المتقاعسين من بدو وحضر، يقول في صدر قصيدة مدح بها عربياً [83]

أُفكـــر فـــي مُعـــاقرة المنايـــا وَقَـــود الخيـــل مُشـــرفة الهـــوادي
زعـــيمُ للقنـــا الخطـــي عزمـــي بســـفك دَمِ الحواضـــر والبـــوادي
إلـــى كـــم ذا التّخلـــفِ والتّـــواني وكـــم هـــذا التمـــادي فـــي التمـــادي
وشـــغلُ الـــنفس عـــن طلـــب المعـــالي ببيـــعِ الشّـــعر فـــي ســـوق الكســـاد

وازدادت حدّة المتنبي اشتعالاً على الأعاجم بعد أن خاب مسعاه في كافور فهو لم يكتف بسلق هذا الامير (الأسود) بلسانه الحادّ، بل صبّ غضبه العنيف على الأعاجم وعلى المصريين جميعاً لأنهم رضوا أن يأكل خيرات بلدهم الوفيرة، أولئك العبيد الطّعام، فيقول:[84]

نامـــت نـــواطير مصـــر عـــن ثعالبهـــا فَقَـــد بَشـــمن ومـــا تفنـــى العناقيـــدُ
العبـــدُ لـــيس لحُـــرّ صـــالحٍ بـــأخ لـــه أنّ فـــي ثيـــاب الحـــرّ مولـــود

(81) نفسه، (ص96)
(82) اليازجي، ناصيف ، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، (ص 79)
(83)نفسه، (ص 456)
(84)نفسه، (ص 549)

وقوله في أخرى مشدّداً النكير على المصريين وحدهم الذين ارتضوا أن يسوسهم عبد كان الأولى بهم أن يقتلوه، بل على المسلمين جميعهم؛ لأنّ حالهم كحال المصريين في الرّضا بالمظهر دون الجوهر فجوهر الإسلام يحثّ على العزّة، ويأنف من الخنوع، فيقول: [85]

سادات كل أناس من نفوسهم وسادة المسلمين الأعبدُ القزمُ
أغايةُ الدين أن تحفوا شواربكم يا أمة ضحكت من جهلها الامم
ألا فتى يورد الهنديّ هامته كيما تزول شكوكُ الناس والتهم

وفي خضم كل تلك الأحداث وسقوط القيم. أخذ يبحث عن بطل عربيّ منقذ تتحقق على يديه الآمال، وتلجأ إليه العروبة في محنتها ووجد سيف الدّولة فارس بني حمدان يحقق الغاية، وينعش الأمل، ويؤكد عروبته. " فلقد وجد في سيف الدولة الأمير الذي ينشده، ورأى الأمير في المتنبي فتى أبيّاً جديراً بصداقته وشاعراً مجيداً خليفاً بتخليد بطولاته وانتصاراته، فكان يصحبه في حلّه وترحاله، وكان يفضله على الشعراء كافة، فاستطاع أن يحتلّ الصّدارة، وينتزع من الشعراء لواء الإمارة"[86] فيقول:[87]

ليس إلاك يا عليُّ همامٌ سيفه دون عرضه مسلولُ
كيف لا يأمن العراقُ ومصرٌ وسراياك دونها والخيول
لو تحرّفت عن طريق الأعادي ربط السّدرُ خيلهم والنخيل
ودرى من أعزّه الدفع عنه فيهما أنه الحقير الذليل
أنت طولَ الحياة للروم غازٍ فمتى الوعدُ أن يكون القُفول
وسوى الروم خلف ظهرك رومٌ فعلى أيّ جانبيك تميل
قعد النّاسُ كلهم عن مساعيـ ـك وقامت بها القنا والنصول
ما الذي عنده تُدار المنايا كالذي عنده تدار الشّمول

فعلاقة المتنبي بالبطل العربي سيف الدولة علاقة حبّ وإعجاب بمثل نادر للبطولة العربية في حقبة افتقدت فيها معاني البطولة ورجالها، فيجد الشاعر في انتصاراته نصراً للأمّة، كما تجد الأمّة في ظله شيئاً من العزّ والأمن والكرامة فهو يعبّر عن مشاعر حب صادق للأمير الحمداني، ويشفق ويقلق عليه لما يحتمل من عبء كما يدرك بإحساسه السيّاسي وشعوره العربي أنّ الأرض العربية معرّضة للانتهاك، فليس هناك من يحميها غير سيف الدولة، أمّا الحكّام الأجانب فهم غير حريصين وغير قادرين ويشعر بالخطر المحدق الذي يستهدف القائد العربي الذي لولاه لتقّدمت جيوش الغزاة متوغّلة في أرض العرب، ويشير إلى صعوبة الحال، ويلحّ على القائد العربي بالعودة، ويذكّره بأن أعداءه ليسوا الرّوم فقط، وإنما هناك روم آخرون خلف ظهر القائد مشيراً إلى الأعاجم ودسائسهم وحقدهم على أمّة العرب، والمتنبي يعبّر عن حرصه وقلقه على هذا القائد العربي الشجاع، كما يبدو في قوله:[88]

أما الخلافة من مشفق على سيف دولتها الفاصل
يقد عداها بلا ضارب ويسري إليهم بلا حامل

(85) اليازجي، ناصيف، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، (ص544)
(86) نظر: عبد الجابر سعود، الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني، (ص69)
(87) اليازجي، ناصيف، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ، (ص171)
(88)نفسه ، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، (ص253)

فلقد سيطر على هذين البيتين إحساس حزين وعميق بخيبة الأمل خصوصاً عندما ينظر إلى من حول سيف الدّولة، ويجده الوحيد الذي يقاوم الهجمات، ويقف صامداً أمام حملاتهم لوقاية الذّات العربية من أن يصيبها أذى أو ضرر " هكذا كان المتنبي عربياً خالصاً في قيمه ومثاليته، وفي لغته وكلامه، ولقد كان في هذا الواقع نشداناً منه للذّات العربية التي ضاعت أو كادت أن تضيع في عصره.[89]

الخاتمة:

وخلاصة القول هي أن المتنبي وجد نفسه في مصر مقيّداً ببيئة ذات طابع مختلف عن البيئة الحلبيّة، تحتّم عليه أن يتكيّف مع واقع اجتماعيّ لمجتمع يضجّ بكثير من القيم والأعراف والعادات والتقاليد التي لا عهد له بمثيل لها في مجتمع حلب الذي ألفه وعشقه، كما واجه ظروفاً اضطرته إلى أن يقبل ويجاري أموراً لم يكن ليقبل بأقلها وهو عند سيف الدّولة، وليجد نفسه في نهاية المطاف قيد إقامة جبرّية عند ملك لا يحبه، ولم تحدث مدائحه المموهة فيه ما يحمله على تقبله كما بدا له تلاشي الأمل الذي حمله على قصده، ووطن نفسه مكرهاً على مدحه وظلّ صابراً على قلق لا يهدأ إلاّ عندما يلوح له بريق أمل يوهمه بقرب حصول مبتغاه، لينتكس في غم جديد لما يراه من دهاء كافور ومكره، ويحسّ بالحسرة على فراقه لسيف الدّولة، وفي هذه البيئة المصرية المشحونة بكل ما هو غير مألوف ولا مرغوب من قبل المتنبي أخذ الشعور بالغربة يقوى في نفسه، ويسيطر على تفكيره حتى بدا من خلال أشعار تلك الحقبة أنّه يعاني من الشعور بغربتين، أولاهما: غربة عن الدّيار والأهل والأحبة وعمّا كان يساوره من الحنين إلى أميره العربي سيف الدّولة الذي أحبه وعاش أجمل سني عمره بصحبته، ويزداد ألمه حين يرى نفسه بين يدي عبد أسود خصي غير عربيّ، لكنه سرعان ما يتصالح مع قراره بالرّحيل عن أميره المحبوب انتصاراً لكبريائه الجريح حين يتذّكر ما تعرّضت له كرامته من امتهان على مرأى ومسمع منه.

أمّا الغربة الثانية فتتمثل في غربته الرّوحية عمن حوله والتي كان يحسّ بها في داخله إحساساً يشعره بالتّمزّق في كثير من الأحيان، فظلّ على حال من الاضطراب والقلق غير آبه لأي عطاء يحول بينه وبين التمّرد والانقلاب على الاوضاع المتردية باذلاً كلّ ما في وسعه لتحقيق طموحاته التي تصّور له أحقيته بمجلس كمجلس سيف الدولة.

واجمالاً فقد كان شعر المتنبي صورة صادقة لعصره، ومرآة للحوادث والمحن في أيّامه ،وما من شك أنّ السياسة والعروبة المتأصلة في فؤاده، والبيئة الاجتماعية كل ذلك قد ألهمه بالشعر، وعبّر به عن رايه ومذهبه، خلجات نفسه.

فيعبّر فنّه العظيم عن صراعه المأساوي في لوحات خالدة هي قطع من نفسه وخواطره، وهي صورة لكل ما يعتمل في هذه الحياة المضطربة وما يؤثر فيها على النفس الإنسانية، كانت ذاته دوماً نقطة الانطلاق، ولكنه لم يحصر نفسه في دائرة الذات الضّيقة وإنّما انطلق من عقال الذات ليعّبر عن كل ما حوله من مشكلات عصره وآلام أُمته ومعاناة قومه، فكانت نفسه مرآة تعكس أحداث العصر والبيئة والواقع والحياة، وتصّور تطلّعاته نحو الأمثل وطموحه اللامحدود نحو الأسمى، وكان يرسم في ذلك كله مذهباً خاصّاً له في الحياة، خطوطه من قسمات شخصيته وألوانه من حياته، وظلاله من نفسيته، وكانت تجربته دائماً هي الإطار الشامل لكل ما يتحدث عنه أو يخوض فيه، وكانت العوامل والمؤثرات التي أحاطت به في حياته وعملت على التأثير في شخصيته روافد مدّت تجربته بالغنى والثراء وعمّقت إحساسه بالوجود، وحّددت نظرته للنّاس والأشياء وساهمت في وضع أسس متينة وقواعد ثابتة لمذهب جديد في الشعر العربي، يربط الفنّ بالتجربة، ويجعل

(89)العشماوي، أيمن، قصيدة المديح عند المتنبي وتطورّها الفني، (ص76)

التعبير الفنّي جزءاً من نفسيّة الفنان، وصدى آلامه وآماله، فكانت لبيئة المتنبي وعصره وأحداث حياته أثر كبير على نتاجه الفنيّ، ورسم مذهبه في الحياة.

قائمة المصادر والمراجع:.

إبراهيم، نوال (2008م)، *المتوقع واللامتوقع في شعر المتنبي*، ط1، عمان، دار جرير للنشر.

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد عز الدين الجزري (630هـ)، *الكامل في التاريخ*، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1407هـ -1987م

أدهم، علي،(1988م) هل كان المتنبي متدينا (مقال) ضمن كتاب *أبو الطيب المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس*،ط2،بغداد، مكتبة النهضة.

أدونيس، علي أحمد سعيد اسبر، (2002 م) *موسيقى الحوت الأزرق (الهوية، الكتابة، العنف)*، ط1، بيروت، دار الآداب للنشر والتوزيع، (د.ت)

أدونيس، علي أحمد سعيد اسبر،(1979م) *مقدمة للشعر العربي*، ط3، بيروت، دار العودة.

أدونيس، علي أحمد سعيد اسبر،(1982م) *الثابت والمتحول تأصيل وأصول*، ط3، بيروت، دار العودة.

الأزهري، محمد بن أحمد الهروي (370هـ) ،(2001م) *تهذيب اللغة*، تحقيق محمد عوض مرعب، ط1، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

أورنة، سماح عدنان،(د.ت) *التّلقي الجمالي في النقد العربي القديم شعر المتنبي نموذجاً في القرنين الرابع والخامس الهجريين*،(د.ط)، (د.م).

البغدادي، أبو بكري أحمد (ت 463هـ) *تاريخ بغداد أو مدينة السلام*، (د.ط)، بيروت، لبنان، (د.ت)

ابن تغري بردى، جمال الدّين أبو المحاسن (ت 874هـ)،(د.ط) *النجوم الزّاهرة*، مصر، دار الكتب،(د.ت)،(د.م)

التونجي، محمد، *المتنبي مالئ الدّنيا وشاغل النّاس*،(2008م)(د.ط)، القاهرة، عالم الكتب للطّباعة والنشر.

12الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد،(1979م) *يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر*، تحقيق محمد يحيى الدّين عبد الحميد، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.

جرار، صلاح،() *المثقف والتغيير " قراءات في المشهد الثقافي المعاصر"*، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدارسات والنشر

ابن جني،(د.ت) *شرح ديوان المتنبي المسمّى الفسر*، تحقيق: رضا رجب ،(د.ط)، دمشق، دار الينابيع.

الجنيدي، إنعام،(1992م) *المتنبي والثورة*،(د.ط) بيروت، دار الفكر العربي.

الجواهري، ابو نصر اسماعيل بن حماد (393هـ)(1990م) ، *تاج اللغة وصحاح العربية* تحقيق: محمد زكريا يوسف، ط4، بيروت، دار العلم للملايين.

حسين طه،(1937م) ، *مع المتنبي*، (د.ط)، القاهرة، دار المعارف.

خفاجي، هادي،(1990م)، *سنوات ضائعة من حياة المتنبي*، ط1، بيروت، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد (ت 681هـ)(2005م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق : إحسان عباس، ط4، بيروت، دار صادر.

الزهراني، جمعة بنت سفر سعيد، (د.ت)،*الإنسان في رؤية ابن الرومي والمتنبي بين المدح والقدح*، رسالة ماجستير غير منشورة جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية.

السامرائي، فيصل،(1970م) *الدولة الحمدانية في الموصل وحلب*، ط1، بغداد، مطبعة الإيمان.

سعيد ادوارد (1991م)، *صور المثقف – محاضرات ريث سنة (1993)*، نقله إلى العربية: غسان غصن، راجعته منى أنيس، (د.ط)، بيروت، دار النهار للنشر والتوزيع.

سلطان، منير (2007م)، *الصورة الفنية في شعر المتنبي (التشبيه)*، د.ط، الاسكندرية، منشأة المعارف.

شكري، غالي(1982م)، شعرنا الحديث إلى أين؟، ط2 ، بيروت، دار العودة.

الشيخ، حفظية صالح ناصر (1991م)، *معنى المعنى عند أبي الطيّب بين السيفيات والكافوريات*، (د.ط) الأردن، الجامعة الاردنية.
صبري، شفيق(1979م)، حياة المتنبي ممزوجة بالدم (مقال) ضمن كتاب: *أبو الطيب المتنبي ماليء الدنيا وشاغل الناس*، د.ط، بغداد، دار الحرية للطباعة.
27الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (764هـ)(د.ت)، *الوافي بالوفيات* تحقيق: أحمد الارناؤوط وزكي مصطفى، (د.ط)، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
ضيف، شوقي(د.ت)، *الفن ومذاهبه في الشعر العربي*، ط6، مصر، دار المعارف.
ضيف، شوقي(1973م)، *العصر العباسي الثاني*، ط8، القاهرة، دار المعارف.
عارف الحسن، نهى(2008م)، *المتنبي دراسة نفسية وأسلوبية*، ط2، بيروت، دار العلم للملايين.
عبد الجابر، سعود محمود (1981م)، *الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني*، ط1، بيروت، مؤسسة الرسالة للطباعة،
عبد الله، صلاح مصيلحي علي(1991م)، *التقليد والتجديد في الشعر العباسي*،(د.ط) دار المعرفة الجامعية.
عزام، عبد الوهاب (2003م)، *نكرى أبي الطيب بعد الف عام*، ط1، القاهرة، شركة نوابغ الفكر.
العشماوي، أيمن زكي(1983م)، *قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني*، ط1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع.
أبو علي القالي، اسماعيل بن القاسم البغدادي، (ت356هـ)(1978م)، *الأمالي في لغة العرب* (د.ط)، بيروت، دار الكتب العلمية.
ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد الدمشقي، (1089هـ)(1406هـ)، *شذرات الذهب*، تحقيق عبد القادير الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، ط1، دمشق، دار ابن كثير.
عمرو بن كلثوم (390ق.م)(1991م) *الديوان*، جمعة وحققّه وشرحه، إميل يعقوب، بيروت، (د.ط) بيروت، دار الكتاب العربي.
عوض ، ابراهيم (د.ت)، *لغة المتنبي (دراسة تحليلية)*، (د.ط)، القاهرة، مطبعة الشباب الحرّ ومكتبتها.
العيسى، مصطفى(2000م)، *اثر المتنبي في أعلام الشّعر الأندلسي*، رسالة دكتوراة، جامعة حلب.
ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن زكريا (ت 395هـ)(1970م)، *معجم مقاييس اللغة*، تحقيق عبد السلام هارون، د.ط، بيروت، دار الفكر.
القلماوي، سهير(1972م)، *هل نبعث المتنبي*، مجلة الشعر، ع1، ، القاهرة.
الكركي، خالد (1990)، *أوراق عربية*، (د.ط)، عمان، مكتبة الرأي المؤسسة الصحفية الأردنية.
ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم (711هـ)(1956م)، *لسان العرب*، ط1، بيروت، دار صادر.
نافع، عبد الفتاح صالح(1983م)، *لغة الحب في شعر المتنبي*، ط1، عمان، دار الفكر للنشر والتوزيع.
اليازجي، ناصيف(د.ت)، *العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب*، صوّب نصوصه وضبطها وقدّم له، عمر فاروق الطباع، (د.ط)، بيروت، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع.
اليافي، نعيم (2000م)، *مرايا المتخالف، مقاربات نقدية في الفكر العربي المعاصر*، ط1، حلب، مركز الإنماء الحضاري.